

عالم يتسع كلما تقل عناصره

شوقي شمعون

رسام الصحراء باعتبارها تجربة عيش

فاروق يوسف
كاتب عراقي



بسعة ما يحلم به الإنسان. غالبا ما تكون رسومته مستلهمة من أحلامه. وهو ما يُضفي عليها طابعا استهيايا غامضا. يرسم شمعون بشرا بحجوم صغيرة في مواجهة مساحة لونية هائلة. من جهته فإنه لا يعتبر ذلك استصغارا للإنسان. ذلك أمر طبيعي إذا ما قسنا المسافة.

ولكن الأمر يمكن ألا يكون كذلك دائما. فالإنسان في مواجهة أحلامه يبدو صغيرا. فكيف يمكن قياس المسافة إذا ما تعلق الأمر بالحرية؟ وإذا ما عرفنا أن الصحراء قد لعبت دورا عظيما في تشكيل أفكار الرسام عن الإنسان ومحيطه يمكننا أن نستغرق في تأمل تجربته من جهة صلتها بالماورائيات وهو ما صار الرسام يتعمق في دراسته.

يرش الفنان الرمل على سطوح لوحاته، يعجنه بالمواد ليثني على تلك القوة الماورائية التي تكمن في الصحراء وتهبها سحرا لا يمكن فك أسرارها.

الرسم والنسيان

ولد شمعون في البقاع ببلبنان عام 1942. التحق بمعهد الفنون الجميلة بالجامعة اللبنانية، وحصل عام 1972 على دبلوم الدراسات العليا. ومن بعدها حصل على منحة لدراسة الفن في الولايات المتحدة. عام 1975 حصل على درجة الماجستير من جامعة سيراكيوز بنيويورك. وحتى عام 1979 كان شمعون زميلا متفرغا في برنامج الدكتوراه بجامعة نيويورك وركز يومها على علم الجماليات.

منذ عام 1974 قام بتدريس الفن في لبنان والولايات المتحدة. وأقام أكثر من أربعين معرضا شخصيا في نيويورك وبيروت وهونغ كونغ ومدن أميركية وعربية وأوروبية أخرى.

عاش شمعون في وادي البقاع حياة ريفية، وفي نيويورك عاش في أقصى حالات المواطنة المدنية. كانت رسومته جسرا صلح بين معنيين للإنسانية وهو ما سعى إلى أن يكون مخلصا له في رسومته. لم يتخل عن إنسانيته التي هي جزء من بنيته الأساس في مقابل أنه اكتسب تفسيراً للإنسانية من نوع جديد من خلال إقامته في نيويورك. رسومته ليست ريفية كما أنها لا تشير إلى أي نوع من أنواع من القطيعة مع ماضيه. لقد اكتشف في نيويورك أنه يمكنه أن يستعيد شريط أحواله من خلال فن معاصر. لا يحتاج المرء إلى أن ينسى لكي يتذكر. شمعون يعيش في الرسم.

يفلت الرسام من الذاكرة كما أنه لا يقني على النسيان. تعامل شمعون بعمق مع مسألة الهوية وهو يدرك أنها ستحصره وتضيق عليه الخناق يوما ما. أدرك أن حريته هي الأساس ولذلك وضع ذاكرته ونسيانه في خدمة رسومته. إنه مقيم في

نادرا ما يفتتح فنانو "التقليدية" على مشاهد تشخيصية وطبيعية. فـ"التقليدية" التي تشير تسميتها إلى استعمال الأقل من الألوان ومن المواد ومن العناصر تعطي ظهرا لكل ما من شأنه أن يربك هداتها واستقرارها والنتائج الخالصة التي تصل إليها من حيث اللون الواحد الذي يملأ المساحة بصمته المطبق. ربما لم يكن اللبناني شوقي شمعون راغبا في أن يكون تقليديا خالصا غير أن من ينظر إلى لوحاته لا بد أن يسحره صفاؤها وخلوها من أي نوع من الصخب اللوني. لون واحد لا أكثر. غير أن ذلك ليس كل شيء. لا يكفي بتلك الصرامة اللونية التي يمكن أن تنتهي عندها اللوحة فهو يبحث عما يعبر عنه على المستوى الإنساني. إنسانيته القلقة تنافس جماليته المستقرة.



شمعون يرسم بشرا لكن بطريقة إيحائية تنطوي على نظرة صادمة ويرسم البحر باعتباره نزوة الصفاء كما أنه يرسم الطبيعة لا باعتبارها مصدرا للتجريد بل لأنها تلهم الشعر

يرسم شمعون بشرا لكن بطريقة إيحائية تنطوي على نظرة صادمة ويرسم البحر باعتباره نزوة الصفاء كما أنه يرسم الطبيعة لا باعتبارها مصدرا للتجريد بل لأنها تلهم الشعر.

بالشعر يكون العالم أجمل

"العالم شعر" بالنسبة إلى شمعون. "إذا نزع الشعر من الرسم تسيل الأصابع فارغة من أي معنى أو قيمة جمالية". كان ذلك واحدا من أهم الدروس التي تعلمها الفنان من التجريدية التعبيرية وبالأخص من جاكسون بولوك. لقد لعبت إقامته الأميركية دورا حاسما في تنظيم طريقته في التفكير في الرسم، وهي طريقة شاعر قبل أن تكون أسلوب مهندس في ترجمة ما هو عصي على القول أو الظهور. باناقة شاعر لا يخفي رغبته في التمسك والشغب يرسم شمعون وهو يفكر في أن يكون العالم أجمل وأقل قهرا وأن يكون المشهد الحياتي إنسانيا



للك الأجزاء التي تكون قد اختفت وليس في الإمكان استعادتها كما كانت. يرتجل الفنان وهو في حالة انتشاء تعبيري أشكالا توحى بسيولتها ولا تميل إلى أي نوع من أنواع الصلابة. كما لو أنها كانت كذلك دائما. ما يرى يبدو منسجما مع تقنية الرسم المائسي، بغض النظر عن حجم ذلك الشيء، شجرة كان أم عشبة. في خيال الرسام يتساوى تأثير المرثيات، غير أن ذلك لا يشمل تلك المرثيات التي يتشكل تأملها نوعا من الضياع فيها كالبحر والصحراء.

حين يتماهى الرسام مع مزاجه الارتجالي تنبعث الأشياء من داخل سطح اللوحة كما لو أن الرسام يكتفي بإزالة ما كان يغطيها من ضباب. فقد إشارة ساحرة من يديه لتنبثق العلامات وتستعيد وجودها السابق لكن في مكان مختلف. شوقي شمعون هو الآخر رسام طبيعة لكن بطريقة إيحائية.

الصحراء تلعب دورا عظيما في تشكيل أفكاره عن الإنسان ومحيطه، ويمكننا أن نستغرق في تأمل تجربته من جهة صلتها بالماورائيات وهو ما صار شمعون يتعمق في دراسته

التي أقامها الفنان مع العناصر التي تشكل مصادر إلهامه من غير أن تظهر مباشرة على سطوح لوحاته. إنه كمن يتذكر أجزاء من الطبيعة التي عاش تفاصيلها في مراحل مختلفة من عمره. يتذكر غير أنه يكتفي باستعادة حالته يومها لا صور مباشرة

نوع من الحميمية يقترحها الرسام لتكون سمة العلاقة بين المتلقي وعالم لا ينغلق على تجريدته وفي الوقت نفسه لا يفتتح مستسلما على خارج هو ليس منه. ذلك هو عالم يجمع بين تركيبته الخاصة وما يلتقطه من تأثيرات خارجية، غالبا ما تكون أشبه بالأسرار. فبالرغم من أن الرسام ينطلق من علاقته بالمساحات الكبيرة التي تحتل الجزء الأكبر من لوحته من موقف المندمض غير أن أي نوع من الارتباك لا يهز تلك العلاقة وهو ما ينعكس على موقف المتلقي الذي يتقدم بثقة كما لو أنه واحد من أولئك الناس الصغار الذين لا يكشف الرسام عن قلقهم.

يرتجل كمن يتذكر

ربما يمكن الحديث عن مزاج ارتجالي اخترق عالم شوقي شمعون غير أن ذلك المزاج يعود إلى نوع العلاقة

رسومته. كل عناصر أصلته تصدر عن رسومته. لا شيء آخر. سيكون عليه أن يكون فنانا عالميا مقيما في لبنان. لا بأس، تلك صفة وليست هوية. وبذلك يكون الفنان قد صنع هويته من مجموعة من العناصر، لم يكن الكثير منها جاهزا. "شوقي شمعون 2006 وحتى الآن" هو عنوان المعرض الذي استضافه مركز بيروت للمعارض عام 2013. معرض استعادي لمرحلة بعينها كما يشير إلى ذلك عنوانه غير أنه يمكن اعتباره خلاصة أسلوبية لتجربة الرسام عبر خمسين سنة من الرسم.

لقد هدا عالم الفنان. صفا وأصبح أكثر نقاء وصارت مفرداته القليلة أكثر التصاقا بالفضاء الذي تقف أمامه من غير أن تظهر أي محاولة لاقتحامه. ظلت الصحراء تتقدم فيما تقف الكائنات الصغيرة في مكانها أما البحر فإنه يُرسم من داخله لا ليرى بل ليُعاش.

